4 st International Congress of Social Science, Innovation & Educational Technologies

Phonetic rhetoric in the Qur'an

Doç.Dr. Ahmed ALDYAB

Ankara Yıldırım Beyazıt Üniversitesi/Türkiye

Abstract

The Qur'an is characterized by its multiple rhetoric. The Qur'an includes rhetoric in terms of the single word, and it includes rhetoric in terms of the sentence, and it contains rhetoric at the level of the verse. The eloquence of the Qur'an begins with the phonetic level of the letter, the word, and the sentence and ends with the phonetic level of the verses and sentences, so that We can say that the surahs of the Qur'an are proportional to each other in terms of phonetic rhetoric. The verse is proportional to the verse before it and the one after it on the phonetic level, and the word is also proportional to the word before it and the one after it in this rhetoric. This research comes to show a part of this rhetoric at the level of letter, word, sentence, verse, and surah.

Keywords: Phonetic Rhetoric, The Qur'an, Verse, Arabic, Verb.

المقدمة:

إن إعجاز القرآن من الموضوعات المهمة في القرآن، وهو موضوع يحمل في أوصاله العديد من النواحي البلاغية، فقد كان القرآن معجزاً بكل جزء منه، فهو معجز من ناحية اللغة العربية التي نزل بها وأفحم وأدهش فصحاء العرب ببلاغته ولغته العذبة، فشهد له العدو قبل المناصر، فكان كل حرف من حروفه فيه إعجاز وكل كلمة كانت تمتلك إعجازاً في ذاتها وفي ارتباطها بالكلمات الأخرى. ويجتمع هذا الإعجاز اللغوي في الآية فتظهر روعة في البلاغة والجمال. وقد كانت لغة القرآن منبعاً ومصدراً للدارسين والباحثين، فكانوا يغرفون من بلاغة اللغة العربية في القرآن ويزينون كتاباتهم بجمالها وروعتها، فالقرآن تحدى أصحاب اللغة أن يأتوا بآية من مثله. والقرآن معجز من ناحية إظهار المعنى، فهو يُظهر المعنى بأدق عبارة وألطف إشارة. إن للقرآن عذوبة تخرج من فم قارئه وراحة تنزل على سامعه، لا يملّ قارئه ولايضجر سامعه. والقرآن معجز من الناحية الصوتية الخارجية والداخلية، فالذي يقرأ القرآن يمثل ويتمثل الإعجاز الصوتي الخارجي، ولهذا فكثير من كفار ومشركي مكة عندما سمعوا القرآن أدركوا جماله وبلاغته وإعجازه. وتمثُّل الإعجاز الداخلي يتجلى في الحروف وتناسقها والكلمات وترتيبها والآيات وانسجامها. فالقرآن اختار حروفه وكلماته بتناسق عجيب، وهذا التناسق كان يؤدي وظائف لا يمكن عدها وحصرها، لكن أستطيع أن أقول إن هذا الترتيب لهذه الحروف والكلمات واختيارها على هذه الجهة يحمل في طياته روعة الإعجاز والبلاغة. وقد تجلت البااغة الصوتية في القرآن في عدة أمور يطول ذكرها في هذا البحث وسأختار بعض منها كأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر.

الرنين الصوتي وبلاغته في القرآن

يقول ابن جني " أصوات الحروف تأتي على سمت الحروف المعبر بها عنها " (ابن جني ج159:2). فالرنين الصوتي هو صفة أساسية في اللغة ولا يمكن أن تقوم اللغة بدون الجرس الصوتي، فلو حدث ذلك لأصبحت اللغة ميتة دون حياة. إن الألفاظ تبنى من الأصوات

أساساً، فكل كلمة لها إيحاءان، الأول الصوت والرنين والثاني هو الدلالة، فهاتان الصفتان متلازمتان ولا يمكن فصلهما عن بعض، ومن هنا كان للرنين الصوتي قيمته في إعطاء دلالة إضافية. وهو لا يأخذ قيمته من نفسه أي لا بد أن يرتبط بالدلالة الإيحائية للكلمة والجملة، فالكلمة تكتسب قوتها من الرنين و الجرس الصوتي الذي تحدثه. ولنضرب على ذلك مثالاً حيث يقول الله عز وجل {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106)} [طه 105-106] فلو نظرنا إلى كلمة "نسفا" فجرس هذه الكلمة يدل على السرعة والقوة، وهو من قولهم نسفت الريح الشيء اقتلعته وأزالته (الأصفهاني:545) مادة نسف. وفي الحقيقة الذي أعطى هذا الرنين لهذه الكلمة هو حرف السين وكأن هذا الحرف يقوم بتمثيل وبتجسيد الصورة الحاصلة بعد اقتلاع الجبال وكيف أن المكان سيصفر بعد الخلاء الذي سيعم المكان، ووجود الألف بعد السين يعطيها انفتاحاً بحيث يُشعر السامع بمدى القوة والتدمير في إزالة الجبال، ولا يمكن أن ننسى خصائص حرف الفاء وما حققه من مناسبة مع السين، فهذا الحرف من لفظه يعطي جرس النفخ، وكأن المشهد يتطلب أن ينفخ الحاضر عنه ذرات الغبار التي ستنتشر في المكان، ولكن لا يمكن أن يغيب عن أذهاننا السرعة في حدوث هذا الأمر وهذا ما أكده حرف الفاء في عملية العطف، فكما هو معروف أن الفاء تفيد التعقيب دون التراخي في الزمن.(ابن هشام:310)

لقد كرر ابن جني وأكد علاقة الجرس الصوتي للكلمات بمعانيها، وعليه فإنه يوجد مناسبة بين صوت الحروف في الكلمة وصوت الحدث المرافق لها. لقد حاول ابن جني أن يجد الفروق بين الحروف من خلال الكلمة فمثلاً يعقد مقارنة بين الفعلين " قضم " والفعل " خضم" فالفعل الأول يستخدم في أكل اليابس بينما الفعل الثاني يستخدم في أكل الرطب والشيء الطري، وهو بذلك يحاول أن يقول إن العلاقة بين صوت القاف المفخم الشديد والمعنى الحاصل والمتكون من أكل اليابس علاقة وثيقة وحميمة، وبالمقابل يوجد علاقة بين صوت الخاء وبين أكل الرطب، فحرف الخاء حرف رخو لين وهذا ما يناسب أكل الرطب، فالشيء الرطب لا يحدث عند أكله صعوبة وشدة (الصوفي:34). وكلام ابن جني نستطيع أن نمثل عليه من القرآن في قوله تعالى في سورة الرحمن{فيهما عينان نضاختان}[الرحمن: 66]. فالنضخ أقوى من النضح وهذا ما يمثله حرف الخاء الذي يمثل القوة بالنسبة لحرف الحاء الذي يمثل الضعف والقلة، وتكون بذلك المناسبة حاصلة في وصف الجنة التي تمتاز بكثرة مائها وغزارته. (ابن جني:30)

وللرنين الصوتي أهداف كثيرة، فهو لا يأتي لمجرد الناحية الصوتية فحسب وإنما لأغراض بلاغية وفنية تناسب جو الآية والموقف الحاصل فمثلاً في قوله تعالى {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}. فكلمة " يصطرخون " صوتها يحاكي مشاهد الصراخ من هؤلاء الكافرين، وليس الصراخ فحسب وإنما العويل الشديد والغليظ، فوجود حرفي الصاد و الطاء مع الراء التي تفيد التكرار ثم حرف الخاء ذي المخرج الحلقي الذي يفيد غصة واختناق ألبس هذه الكلمة الإيحاء الصوتي الذي بدوره شخّص المعنى أمامنا وقربه إلى الأذهان وصوّر ألم العذاب لهؤلاء. وفعل "اصطرخ" على وزن افتعل، وكما هو معروف أن صيغة " افتعل " في اللغة العربية من معانيها أنها تدل على التعب والشدة والتكلف والجهد (عنتر:79)، وهذا ما حققته هذه الصيغة دون الفعل " صرخ " على الرغم من أنهما تحملان نفس المعنى، فالاصطراخ فيه استمرار وتعب نتيجة للعذاب المستمر والشديد، فعذابهم يتمثل في اصطراخهم

المتكرر. وحتى لو أخذنا ظاهر صوت الفعلين فإننا نلاحظ أن الفعل "اصطرخ" أثقل في اللفظ من الفعل "صرخ" والفرق بينهما هو حرف الطاء فهو حرف انفجاري يحمل صفة الإطباق (ابن جني، سر صناعة الإعراب:21)، فالذين في جهنم من شدة البكاء والألم تصيبهم غصة تصل إلى حلقومهم من ثم تصل إلى مخرج الطاء الذي بدوره ينفتح ليشير إلى الطاقة الناتجة عن العذاب الكبير، وطبعاً فإن الأصوات الصادرة عنهم ستكون كريهة وثقيلة.

وكما أن جرس الكلمة ورنينها يدلان على السرعة والشدة، فإننا نجد منه ما يدل على البطء وقلة الحركة، فمثال ذلك قوله تعالى {وإن منكم لمن ليبطئن}[النساء:72]. فجرس "ليبطئن" يوحي بالبطء وثقل الحركة ، حتى إن النطق بهذه الكلمة يستثقل على اللسان، فلفظها لا يمكن أن يسير بسرعة(قطب:76). وهذا البطء في لفظ الكلمة يعطي إيحاءً ببطء الحركة من هؤلاء الذين كانوا يستصعبون الخروج إلى الجهاد، ونفوسهم كانتْ تميل إلى الخلود وقلة الحركة. وجرس الكلمة يعطينا إيحاء بالإكراه والإلزام، فمن ذلك حكاية عن سيدنا هود قوله {أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون}[هود: 28]، فكلمة "أنلزمكموها" توحي إلى ثقل الانجذاب للدعوة وكيف يصدر عن هؤلاء كرههم لتقبل هذه الدعوة، لذلك اتصل بها ثلاثة ضمائر لتوحي بثقل في النطق الذي يوحي بجهد في الإلزام الذي لا يحبذه النبي هود عليه السلام. وربما جاء جرس الكلمة ليصور الانجذاب والتثاقل إلى الدنيا ومثاله قوله تعالى {يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض} [التوبة:38]. سورة التوبة كما هو معروف سورة القتال والجهاد، فالآية تدعو المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله، لكن بعض المسلمين آثر الحياة الدنيا على الآخرة وأصبحت حركتهم بطيئة لا تتناسب والأمر الآلهي، فلفظ كلمة "اثاقلتم" يشير إلى ثقل هؤلاء الأشخاص الذين صعب عليهم الجهاد(قطب:91). ومن الأمثلة الواضحة التي تؤكد حقيقة الجرس الصوتي في القرآن قوله تعالى {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا}[مريم: 83]. يقول الزمخشري: "الأز والهز والاستفزاز أخوات، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج"(الزمخشري ج54:4). فالقرآن استخدم (أزا) ولم يستخدم (هزا) على الرغم من أن المعنيين متساويان كما قال الزمخشري ، وهنا تبرز بلاغة الجرس الصوتي فحرف الهاء يوحي بالهدوء واللين وهذا مالايناسب الموقف السياقي، لأن المعنى فيه دلالة على الإزعاج والقهر(الطبري:ج252:18)، ولذلك جاءت الهمزة، لأن في الهمزة شدة وصعوبة في المخرج، فهي أقوى من الهاء وأكثر خشونة وشدة.

الإبدال الصوتي وبلاغته في القرآن

الإبدال مصطلح في الأساس صرفي لكننا يمكن أن نسخر هذا المصطلح في المجال الصوتي. فالإبدال هو الإتيان بحرف مكان حرف لأهداف تناسب الآية ومعناها ونرى هذا في بعض المواضع من القرآن ففي سورة الأعراف نرى قوله تعالى (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) ففي كلمة " بصطة " نرى كيف عُدلت السين إلى الصاد وفي ذلك يقول الزمخشري " إبدال السين بالصاد هو تشخيص الامتداد في الطول الذي كان على خلق آبائهم، فقد كانوا على طول عظيم " ومن هنا نرى أن صوت الصاد المفخم دل على عظم أجسامهم. وهذا مأكده القرطبي في قوله: " ويجوز بصطة بالصاد، لأن بعدها طاء، أي طولاً في الخلق، وعظم الجسم " (الزمخشري، 74: 2009)

ومن هنا نرى العلاقة بين لفظ الكلمة وما تدل عليه، فحرف الصاد في الفخامة والغلظ أقوى من السين الذي يعتبر مهموساً رقيقاً. وهذا ما نراه في سورة الغاشية في قوله تعالى (لست عليهم بمصيطر). فالآية تشير وتوجه خطاباً إلى الرسول الكريم واصفة إياه بأنه ليس متجبراً ولا يملك تحكماً على الذين سيدخلون في الدين فهو غير متسلط في إكراههم على الدخول في الدين، فالدعوة تأتي من الله عز وجل فمن أراد أن يؤمن فاليؤمن ومن أراد يكفر فهذا قراره وسوف يحاسب عليه يوم القيامة. فالآية واضحة بشكل جلي في استبدال حرف الصاد بحرف السين، فالموقف هو حال التسلط والإجبار فحرف الصاد يناسب الفخامة والقوة بعكس السين الذي يميل إلى اللين والرقة وهو ماينناسب الموقف وهذا الحال.

تناسق الحركات وبلاغته الصوتية في القرآن

إن الحركات بطبيعتها تشكل نسقاً صوتياً وتلويناً في الكلمات، فهي تتحد مع الحروف لتعطي للكلام نغماً جميلاً. واتحادها يكون ما بين شكلها وما بين تلاؤمها وما بين أثرها وما بين تماثلها وحركاتها . فكل حركة تؤدي بمفردها جرساً موسيقياً، فإذا تآلفت مع أخواتها ومع الحروف شكلت ما يسمى "النسق الصوتي" أو ما يسميه بعض أهل العلم "الجرس القرآني"، هذا النسق الذي يبدو في كلمات القران وفي اختيارها. فالقرآن لا يختار كلمة إلا إذا كانت متناسقة حروفاً ومعنى وصوتاً. وقد تلوّن مجيء الحركات بحسب ظرف الآية والمعنى الذي ترمي إليه. ولنوضح هذا الكلام نقدم بعض الأمثلة

لنأخذ كلمة "النذر" في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} (القمر: 36) هذه الكلمة انظر إلى حركاتها؛ فإن الضمة ثقيلة لتواليها على النون والذال معًا "نذُر"، بالإضافة إلى ثقل حرف الذال عند اقترانه بالضمة، وهنا لا نقصد بالثقل ثقل المخرج أو صفته، لكن نقصد هنا لفظه الصوتي مما يكشف عنه ويُفسح عن موضع الثقل فيه، لكنه جاء في القرآن على العكس، فقد جاء بعدة تلوينات صوتية، وأحواله هذه كانت تبعاً للآية ولمضمونها اللغوي والنفسي ونقصد من ذلك أن هذا اللفظ نفسه لو نظرت إليه في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} (القمر: 41) تجده ليس فيه الثقل الظاهر بهذا الوضع لما سبقه من حروف، أما في هذه الآية تجد جمالًا شديدًا باستخدامها {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} إذا تأملت التركيب وتذوقت مواقع الحروف وحركاتها في حسّ السمع، وتأملت مواضع القلقلة في دال "لَقَدْ" وفي الطاء من "بَطْشَتَنَا" هذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو "تَمَارَوْا" مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات، والحروف في الكلمة الواحدة ليست مقصودة لذاتها فحسب، بل لتساند الحروف في الكلمات الأخرى. فلو نظرنا إلى الراء في كلمة "تَمَارَوْا" فإنها ما جاءت إلا لتقوي الراء في كلمة "النذر"، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تنبو فيه، ثم تتعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون: "أَنْذَرَهُمْ" وفي ميمها: "أَنْذَرَهُمْ بطشتنا" وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في " النذر". (الرافعي، 85:).

الخاتمة والنتائج:

لازالتْ الدراسات الصوتية في القرآن محدودة بعض الشيء مقارنة بالدراسات الأخرى في القرآن.

الدراسات الصوتية في القرآن دراسات بسيطة لا تدخل إلى العمق، حيث تتلاقى الأمور البلاغية واللسانية و حتى النحوية والصرفية.

الهدف من الدراسات الصوتية في القرآن هو إظهار معان جديدة تفيد الآية والتفسير بشكل خاص.

لا بد من ربط الدراسات الصوتية بالدراسات الأخرى في علوم القرآن بكافة أنواعها.

يمكن أن نستفيد من بلاغة القرآن الصوتية في إيجاد علاقة بين القراءات القرآنية ومعانيها وتأثيرها على المعاني.

المصادر والمراجع:

إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو مصرية، 1997م.

ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق: بشار عواد معروف- عصام الحرستاني، بيروت،مؤسسة الرسالة ، 1991.

أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008م.

أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دمشق، ، دار المعرفة، 2009.

الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، 1973.

سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، 2006م.

عبد الحميد عنتر، تصريف الأفعال، دار أروقة للدراسات والنشر، 2017م.

عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف جمال الدين بن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، القاهرة،1383هـ.

عثمان بن جني أبو الفتح، الخصائص، دار المصرية، مصر، 1952م.

عثمان بن جني أبو الفتح، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، تأليف عبد اللطيف الصوفي، دار طلاس،1986م.

نجاة عبد العظيم كوفي، أبنية الأفعال (دراسة لغوية قرآنيّة) دار الثقافة للنشر والتوزيع